فى الكوفة أصحاب ابن مسعود . وعلماء أهل المدينة فى التفسير مثل زيد بن أسلم الذى أخذ عنه ابنه عبدالرحمن بن زيد، ومالك بن أنس. انتهى.

٣ — قاعدة فى أن غالب ما صح عن السلف من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوّع ، لا اختلاف تضادّ :

قال ابن تيمية : يجب أن يعلم أن النبىّ صلى الله عليه وسلم بيّن لأصحابه معانى القرآن ، كما بيّن لهم ألفاظه . فقوله تعالى: « لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »(١) يتناول هذا وهذا . وقد قال أبو عبد الرحمن السُّلَمِىّ : حدثنا الذين كانوا يقرؤون القرآن كعثمان بن عفان وعبدالله ابن مسعود وغيرهما؛ أنهم كانوا إذا تعلموا من النبىّ صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً . ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة .

وقال أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدَّ فى أعيننا ، رواه أحمد فى مسنده(٢).

وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمان سنين ، أخرجه فى الموطأ(٣) .

وذلك أن الله قال « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ »(٤) . وقال : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ »(٥) وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن . وأيضاً فالعادة

(١) انظر الحاشية رقم ٥ ص ١٠ .

(٢) مسند الإمام أحمد ، جزء ثالث ، صفحة ١٢٠ (طبعة الحلبىّ) .

(٣) الإمام مالك فى الموطأ فى : ١٥ ـ كتاب القرآن ، ١١ ـ وحدثنى عن مالك أنه بلغه أن عبد الله بن عمر مكث على سورة البقرة ثمانى سنين يتعلمها ، صفحة ٢٠٥ .

(٤) [٣٨ / ص / ٢٩] كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ .

(٥) [٤ / النساء / ٨٢] أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيرًا .

تمنع أن يقرأ قوم كتاباً فى فن من العلم، كالطب والحساب ولا يستشرحونه ، فكيف بكلام الله الذى هو عصمتهم ، وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم ؟ ولهذا كان النزاع بين الصحابة فى تفسير القرآن قليلًا جداً . وهو، وإن كان بين التابعين أكثر منه بين الصحابة ، فهو قليل بالنسبة إلى ما بعدهم . ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة . وربما تكلموا فى بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال . والخلاف بين السلف فى التفسير قليل . وغالب مايصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوّع لا اختلاف تضادّ ، وذلك صنفان :

أحدهما : أن يعبر واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه ، تدل على معنى فى المسمى غير المعنى الآخر ، مع اتحاد المسمى ، كتفسيرهم « الصراط المستقيم » : بعضٌ بالقرآن ، أى اتباعه . وبعضٌ بالإسلام . فالقولان متفقان . لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن ، ولكن كل منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر ، كما أن لفظ « صراط » يشعر بوصف ثالث . وكذلك قول من قال : « هو السنة والجماعة » ، وقول من قال : « هو طريق العبودية » ، وقول من قال: « هو طاعة الله ورسوله » وأمثال ذلك . فهؤلاء كلهم أشاروا إلى ذات واحدة، لكنْ وَصَفَها كل منهم بصفة من صفاتها .

الثانى : أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل . وتنبيه المستمع على النوع ، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود فى عمومه وخصوصه. مثاله : مانقل فى قوله تعالى : « ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا »(١) الآية . فمعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات ، والمنتهك للحرمات ؛ والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات ، والسابقَ يدخل فيه من سبق ، فتقرّب بالحسنات مع الواجبات . فالمقتصدون أصحاب اليمين ، والسابقون السابقون أولئك المقربون . ثم إن كلًّا منهم يذكر هذا فى نوع من أنواع الطاعات كقول القائل : السابق الذى يصلى فى أول الوقت ، والمقتصد الذى يصلى فى أثنائه ، والظالم

(١) [٣٥ / فاطر / ٣٢] ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ .

لنفسه الذى يؤخر العصر إلى الاصفرار . أو يقول : السابق المحسن بالصدقة مع الزكاة ، والمقتصد الذى يؤدى الزكاة المفروضة فقط ، والظالم مانع الزكاة .

قال : وهذان الصنفان اللذان ذكرناهما فى تنوّع التفسير، تارة لتنوّع الأسماء والصفات ، وتارةً لذكر بعض أنواع المسمى ، هو الغالب فى تفسير سلف الأمة الذى يظن أنه مختلف .

ومن التنازع الموجود منهم ما يكون اللفظ فيه محتملًا للأمرين ، إما لكونه مشتركا فى اللغة ، كلفظ « القَسْوَرَة » الذى يراد به الرامى ، ويراد به الأسد ؛ ولفظ « عسعس » الذى يراد به إقبال الليل وإدباره . وإما لكونه متواطئاً فى الأصل ، لكن المراد به أحد النوعين ، أو أحد الشخصين ، كالضمائر فى قوله : « ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى »(١) الآية ، وكلفظ « وَالْفَجْرِ. وَلَيَالٍ عَشْرٍ . وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ »(٢) وأشباه ذلك . فمثل ذلك قد يجوز أن يراد به كل المعانى التى قالها السلف ، وقد لا يجوز ذلك . فالأول إما لكون الآية نزلت مرتين ، فأريد بها هذا تارة ، وهذا تارة . وإما لكون اللفظ المشترك يجوز أن يراد به معنياه ؛ وإما لكون اللفظ متواطئاً ، فيكون عاماً إذا لم يكن لتخصصه موجب . فهذا النوع إذا صح فيه القولان كان من الصنف الثانى .

ومن الأقوال الموجودة عنهم ، ويجعلها بعض الناس اختلافاً ، أن يعبروا عن المعانى بألفاظ متقاربة ، كما إذا فسر بعضهم « تبسل » بتحبس ، وبعضهم بترتهن ، لأن كلًّا منهما قريب من الآخر .

فصل

ثم قال :

والاختلاف فى التفسير على نوعين : منه ما مستنده النقل فقط ، ومنه ما يعلم بغير ذلك . والمنقول إما عن المعصوم أو غيره ؛ ومنه ما يمكن معرفة الصحيح منه من غيره ، ومنه

(١) [٥٣ / النجم / ٨ و ٩] ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى .
(٢) [٨٩ / الفجر / ١ ـ ٣] وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ .

مالا يمكن ذلك . وهذا القسم الذى لايمكن معرفة صحيحه من ضعيفه ، عامته مما لا فائدة فيه ، ولا حاجة بنا إلى معرفته . وذلك كاختلافهم فى لون كلب أصحاب الكهف ، واسمه ، وفى البعض الذى ضرب به القتيل من البقرة ، وفى قدر سفينة نوح وخشبها ، وفى اسم الغلام الذى قتله الخضر ، ونحو ذلك . فهذه الأمور طريق العلم بها النقل ، فما كان منه منقولًا نقلًا صحيحاً عن النبىّ ﷺ قُبِل . وما لا ، بأن نقل عن أهل الكتاب ، كـكعب ووهب ، وقف عن تصديقه وتكذيبه . لقوله ﷺ : « إذا حدثكم أهل الكتاب ، فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم »[1] ، وكذا ما نقل عن بعض التابعين ، وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب . فمتى اختلف التابعون ، لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض ، وما نقل فى ذلك عن الصحابة نقلًا صحيحاً ، فالنفس إليه أسكن مما ينقل عن التابعين ، لأن احتمال أن يكون سمعه من النبىّ ﷺ أو من بعض من سمعه منه أقوى ، ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين . ومع جزم الصحابىّ بما يقوله ، كيف يقال إنه أخذه عن أهل الكتاب وقد نهوا عن تصديقهم ؟

وأما القسم الذى يمكن معرفة الصحيح منه ، فهذا موجود كثير ولله الحمد ، وإن قال الإمام أحمد : ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازى ؛ وذلك لأن الغالب عليها المراسيل .

وأما ما يعلم بالاستدلال لا بالنقل ، فهذا أكثر ما فيه الخطأ من جهتين حَدَثَتَا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان . فإن التفاسير التى يذكر فيها كلام هؤلاء صرفاً ، لا يكاد يوجد فيها شىء من هاتين الجهتين ، مثل تفسير عبد الرزاق والفريابىّ ووكيع وعبد بن حميد وإسحق وأمثالهم . أخذها قوم اعتقدوا معانى ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها .

(والثانى) قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده من كان من الناطقين بلغة العرب ، من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن والمنزل عليه والمخاطَب به . فالأولون راعوا المعنى الذى رأوه من غير نظر إلى ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان . والآخرون راعوا

---

(١) مسند الإمام أحمد ، جزء رابع ، صفحة ١٣٦ (طبعة الحلبىّ) عن أبى نملة الأنصارىّ .

مجرد اللفظ وما يجوز أن يراد به العربيّ من غير نظر إلى مايصلح للمتكلم ، وسياق الكلام . ثم هؤلاء كثيراً ما يغلطون فى احتمال اللفظ لذلك المعنى فى اللغة ، كما يغلط فى ذلك الذين قبلهم ، كما أن الأولين كثيراً ما يغلطون فى صحة المعنى الذى فسروا به القرآن ، كما يغلط فى ذلك الآخرون ، وإن كان نظر الأولين إلى المعنى أسبق ، ونظر الآخرين إلى اللفظ أسبق. والأولون صنفان : تارة يسلبون لفظ القرآن ما دل عليه وأريد به ، وتارة يحملونه على ما لم يدل عليه ولم يرد به . وفى كلا الأمرين قد يكون ما قصدوا نفيه أو إثباته من المعنى باطلاً ، فيكون خطؤهم فى الدليل والمدلول . وقد يكون حقًّا، فيكون خطؤهم فى الدليل لا فى المدلول . فالذين أخطأوا فيهما ، مثل طوائف من أهل البدع ، اعتقدوا مذاهب باطلة ، وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على رأيهم ، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين ، لا فى رأيهم ولا فى تفسيرهم . وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم . مثل تفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم والجُبَّائى وعبد الجبار والرمّانى والزمخشرىّ وأمثالهم . وهؤلاء من يكون حسن العبارة يدس البدع فى كلامه ، وأكثر الناس لا يعلمون ، كصاحب الكشاف ونحوه . حتى إنه يروج على خلق كثير من أهل السنة تفاسيرهم الباطلة . وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة وأسلم من البدعة . ولو ذكر كلام السلف المأثور عنهم على وجهه لكان أحسن ، فإنه كثيراً ما ينقل من تفسير ابن جرير الطبرىّ ، وهو من أجلّ التفاسير وأعظمها قدراً ، ثم إنه يدع ما ينقله ابن جرير عن السلف ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين ، وإنما يعنى بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزله أصولهم ، وإن كانوا أقرب إلى السنة من المعتزلة ، لكن ينبغى أن يعطى كل ذى حق حقه . فإن الصحابة والتابعين والأئمة إذا كان لهم فى الآية تفسير، وجاء قوم فسروا الآية بقول آخر لأجل مذهب اعتقدوه، وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحابة والتابعين، صار مشاركا للمعتزلة وغيرهم من أهل البدع فى مثل هذا .

وفى الجملة من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى مايخالف ذلك كان مخطئاً فى ذلك بل مبتدعاً ، لأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه ، كما أنهم أعلم بالحق الذى بعث الله به

رسوله . وأما الذين أخطأوا فى الدليل لا فى المدلول كمثل كثير من الصوفية والوعاظ والفقهاء، يفسرون القرآن بمعان صحيحة فى نفسها ، لكن القرآن لا يدل عليها ، مثل كثير مما ذكره السلمىّ فى الحقائق ، فإن كان فيما ذكروه معانٍ باطلة دخل فى القسم الأول . انتهى .

٤ — قاعدة فى معرفة سبب النزول :

قال ابن تيمية : معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية ، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب . وقد أشكل على مروان بن الحكم معنى قوله تعالى : « لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا »(١) الآية ، وقال : لئن كان كل امرئ فرح بما أوتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً ، لنعذبن أجمعون . حتى بيّن له ابن عباس أن الآية نزلت فى أهل الكتاب حين سألهم النبىّ ﷺ عن شىء فكتموه إياه وأخبروه بغيره ، وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه ـ أخرجه الشيخان(٢) ـ .

وحكى عن عثمان بن مظعون وعمرو بن معديكرب أنهما كانا يقولان : الخمر مباحة ،

---

(١) [٣ / آل عمران / ١٨٨] لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

(٢) صحيح البخارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣ ـ سورة آل عمران ، ١٦ ـ باب لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا .

عن ابن أبى مليكة أن علقمة بن وقاص أخبره أن مروان قال لبوابه : اذهب ، يا رافع ، إلى ابن عباس فقل له : لئن كان كل امرئ فرح بما أوتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذّبا ، لنعذّبن أجمعون . فقال ابن عباس : وما لكم ولهذه ؟ إنما دعا النبىّ ﷺ يهود . فسألهم عن شىء فكتموه إياه وأخبروه بغيره ، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم ، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم .

ثم قرأ ابن عباس : وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ . إلى آخر الآيتين .